رثاء أبي العلاء لوالده (تحليل فني)

(أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

خلاصة—**هذا الموضوع يعرض لمقاطع من قصيدة أبي العلاء المعري في رثاء والده، وأبو العلاء له رثاء في والدته كذلك، كله يمتزج فيه الحزن بالفلسفة والبكاء بالحكمة والعبرة.**

الكلمات المفتاحية: *أبو العلاء، المعرة، معرة النعمان، الرثاء، المراثي، الشام.*

I. المقدمة

قصيدة المعري قصيدة في رثاء والده - عبد الله بن سليمان[1] - لا تقل عن قصيدته في رثاء أمه روعة سار فيها على طريقته في فلسفة المعاني والاستطراد في الصور، والتأمل في المصير الإنساني

II. موضوع المقالة

لأبي العلاء المعري قصيدة في رثاء والده - عبد الله بن سليمان[2] - لا تقل عن قصيدته في رثاء أمه روعة سار فيها على طريقته في فلسفة المعاني والاستطراد في الصور، والتأمل في المصير الإنساني "فقد كان يؤمن فيما يبدو بأن فناء الأجساد هو الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل الجدل. ومن ثم أخذ يلح على ذلك إلحاحا متصلا بلا كلل أو ملل. كان أبو العلاء في هذه المرثية يقف على أرضية من الفهم التقليدي لمصير الإنسان. ومع ذلك كانت ملامح قضية المصير الإنساني بكل أبعادها المختلفة قد أخذت طريقها إلى فكره بكل ملامحها المتنافرة حينا والمنسجمة أحيانا[3]". يقول أبو العلاء:

نَقِفْتُ الرَّضا حَتَّى عَلَى ضَاحِكِ المُزْنِ ... فَلا جَادَنِي إلا عَبُوسٌ مِنَ الدَّجْنِ[4]

كان موت والده فاجعة كبيرة بالنسبة له لا يحتملها؛ لذلك فهو ناقم على كل شيء حوله في الحياة، حتى "ضاحك المزن" الذي يعد بشير خير ورسول حياة ينتظره الناس، نقم عليه الشاعر، بل تمنى ألا يحل به إلا السحاب العابس، ونقم كذلك من نفسه.

فَلَيتَ فَمِي إِنْ شَامَ سِنِّي تَبَسُّمِي ... فَمُ الطَّعْنَةِ النَّجْلاءِ تَدْمِي بِلا سِنِّ

كَأَنَّ ثَنَايَاهُ أَوَانِسُ ... يُبْتَغَى لَهَا حُسْنُ ذِكْرٍ بِالصِّيَانَةِ والسَّجْنِ

ولا ينفك أبو العلاء يذكر الليالي وحُكْمها، ورماح المنايا وأفعالها، وكيف أنها أنفذت في أبيه أمرها، لكنه مضى طاهرًا في كل شئونه:

أبِي حَكَمَتْ فِيهِ اللَيالِي ولم تَزَلْ ... رِماحُ المَنَايَا قادِرَاتٍ على الطَعْنِ

مَضَى طاهِرَ الجُسْمَانِ والنَفْسِ والكَرَى ... وسُهدِ المَنَى والجَيبِ والذَيلِ والرُّدْنِ

ويصف والده بصفات تتناسب مع العظمة التي يراها فيه، ومكانته التي وقرت له في نفسه، ويرسم له صورة يتأثر فيها بثقافته الإسلامية الأصيلة، يبرز فيها وقاره؛ يستفهم إن كان هذا الوقار سيخف حين يصبح جبل أحد كالعهن يوم القيامة! وهل سيبادر مع الناس لينهل من حوض الرسول - صلى الله عليه وسلم - أم أنه سيأبى أن يتزاحم معهم فيستأني حتى ينفض الزحام؟! ولا يدفعنا هذا إلى الشك في تأدب أبي العلاء مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فربما قصد أن أباه قد لا يبادر إلى الحوض مع باقي الناس حتى تكون له خصوصية لقاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دون تدافع كما يتدافع غيره من سائر الناس، ويكون بذلك قد حقق شيئين: ظهوره بمظهر الوقار، ولقاء رسول الله لقاء خاصا، وكيف لا يذهب تفكير والده هذا المذهب وهو صاحب عقل وحجى:

فَيا لَيتَ شِعرِي هَلْ يَخِفُّ وَقارُهُ ... إِذَا صَارَ أَحَدٌ فِي القِيَامَةِ كالعِهْنِ

وهَلْ يَرِدُ الحَوضَ الرَّوِيَّ مُبَادِرًا ... مَعَ النَّاسِ أَمْ يَأبَى الزِّحَامَ فَيَسْتَأْنِي

حِجًى زَادَهُ مِن جُزْأَةٍ وَسَمَاحَةٍ ... وبعضُ الحِجَا دَاعٍ إلى البُخْلِ والجُبْنِ

---

(١)اختلف في تاريخ وفاة والد أبي العلاء المعري؛ حيث ذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء أنه توفي بحمص سنة ٣٧٧هـ، وذكر ابن العديم في "الإنصاف والتحري" أنه توفي بمعرة النعمان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة. وقد رجح الباحثون رأي ابن العديم حيث إن مثل هذه القصيدة العميقة لا يعقل أن يقولها أبو العلاء وهو في الرابعة عشرة من عمره، وقد ذهب إلى هذا الرأي: د. بنت الشاطئ في كتابها "أبو العلاء المعري" (ص٦٨)، د. عدنان عبيد العلي في كتابه "المعري في فكره وسخريته" (ص ٤٢)، د. عمر فروخ في كتابه "حكيم المعرة" (ص ١٧).

(٢)اختلف في تاريخ وفاة والد أبي العلاء المعري؛ حيث ذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء أنه توفي بحمص سنة ٣٧٧هـ، وذكر ابن العديم في "الإنصاف والتحري" أنه توفي بمعرة النعمان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة. وقد رجح الباحثون رأي ابن العديم حيث إن مثل هذه القصيدة العميقة لا يعقل أن يقولها أبو العلاء وهو في الرابعة عشرة من عمره، وقد ذهب إلى هذا الرأي: د. بنت الشاطئ في كتابها "أبو العلاء المعري" (ص٦٨)، د. عدنان عبيد العلي في كتابه "المعري في فكره وسخريته" (ص ٤٢)، د. عمر فروخ في كتابه "حكيم المعرة" (ص ١٧).

(٣)قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري - د. عبد القادر زيدان (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - سنة ١٩٨٦) ص ١٨٣.

(٤)شروح سقط الزند – القسم الثاني – ص ٩٠٦.